(السنة الثالثة عشرة)

العدد الأول — يناير — مارس ١٩٤٧

صحيفة دار العلوم

تصدرها جماعة دار العلوم
كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب هناء

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى
الاستاذ بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى ——— ٢٠ قرشاً
خارج القطر ——— ٣٠ قرشاً
ثمن العدد ——— ٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين نحيا لوجدها تموت في كل مكان ونحيا في دائرة العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

الأخلاق فى شعر شوقى

للاستاذ عبد الوهاب عنانى الخطيب

بقية ما نشر فى العدد الثانى من السنة الثانية عشرة

— ٢ —

وإذا منح الشاعر الأصيل مع سمو الخلق رهافة الحس ، ونبالة القصد ، والشعور بالمسئولية الأنسانية، والتبعة التربوية لأبناء جيله والأجيال المقبلة، فإنه يدرك من نفسه أقل الهفوات ولا يخفى عليه فى محيطه الخاص ، ولا فى بيئته العامة أدق الخفايا ـ ولا يزال بما له من السلطان الشعرى ، والقوة الأخلاقية يضرب على أنغام مختلفة الايقاع من لحن محزن يصور نواحى الضعف تارة ، ومن آخر ساو يصور نواحى القوة تارة أخرى ، وهذا بالضبط ما تستطيع أن نلمسه فى شعر شوقى من صور لأخلاق بعض معاصريه ،

وأنا مع حضرة الأستاذ الكبير « على النجدى ناصف » عند قوله . فى الوقت الذى كان شوقى يقيم فيه مجده الشعرى ، كانت مصر تقبل وتتجمع للمطالبة بحقها فى الحياة الحرة الكريمة بعد ما أصابها من الارتكاس والتبدد فى الثورة العرابية ، وكان جبار الاحتلال لا يعدم ان يجد من ضعفاء النفوس وأصحاب المطامع الشخصية نصراء يمضون إرادته ، ويهابون سطوته ، فكان شعور الناس اذ ذاك مزاجا من الطموح والعزم ، والنقمة وابتغاء الاسباب

هذا الكلام صحيح غاية الصحة ، إلا أنه فى حاجة إلى توضيح من شعر شوقى لنستطيع فيما بعد ـ كما استطعنا فيما قبل — أن ندرك السر فى تلقيبه بشاعر الأخلاق

كان المصريون بعد الثورة العرابية شيعا وأحزابا ، فريق يوالى تركيا بصفتها متبوعة من الجهة الرسمية ، ومن وجهة الخلافة الدينية ، ومن ناحية التشاريف الأدبية التى كانت تمنح من السلطان لكبار المصريين رتبا وأوسمة.

وشيعة تناصر جبار الاحتلال ، وتعتبره صاحب الرأى النافذ فى سياسة البلاد ، والموجه الفعلى لمهام أمورها ، عملا بكلمة « جرانفيل » إن رئيس الوزارة الذى لايصغى لمشورة المعتمد البريطانى فى مصر يجب عليه فى الحال أن يستقيل .

وحزب ينادى « مصر للمصريين » ولا يجد فى هذه الدعوة الصادقة حرجا ولا إعنانا « للباب العالى » وإن كان يجد كل الحرج من ناحية بريطانيا وكان شوقى يرى هذا الرأى ويصرخ به فى قصائد كثيرة

قال العذول خرجنا فى محبتكم من الوقار فيا صدق الذى زعما
فما على المرء فى الأخلاق من حرج إذا رعى صلة فى الله أو رحما
ولو وهبتم لنا عليا سيادتكم مازادنا الفضل فى أخلاصنا قدما
نحنو عليكم ، ولا ننسى لنا وطنا ولا سريرا ، ولا تاجا ، ولا علما
هذى كرائم أشياء الشعوب فإن ماتت فكل وجود يشبه العدما

وكان هذا الانقسام مجلبة للتفكك ، وعدم الثقة وضعف النفوس ، وشتات القلوب ، والاستغراق فى ذل العبوديه ، وبلاء القيود . لم يخف على شوقى أثره حين قال الهمزة النبوية .

أدعوك عن قومى الضعاف لأزمة فى مثلها يلقى عليك رجاء
أدرى رسول الله أن نفوسهم ركبت هواها والقلوب هواء
متفككون فما تضم نفوسهم ثقة ولا جمع القلوب صفاء
رقدوا وغرهمو نعيم باطل ونعيم قوم فى القيود بلاء

وحين قال فى قصيدته « رمضان ولى » ينعى فيها على النفاق والتخاذل والشقاق ، ويوجه الى الشمم والاباء وجمع الكلمة

فلعل سلطان المدامة مخرجى من عالم لم يحو غير نفاق
وطنى أسفت عليك فى عيد الملا وبكيت من وجد ومن إشفاق
لا عيد لى حتى أراك بأمـــة شماء راوية من الاخلاق
ذهب الكرام الجامعون لأمرهم وبقيت فى خلف بغير خلاق
أيظل بعضكمو لبعض خاذلا ويقال شعب فى الحضارة راق
وإذا أراد الله إشقـاء القرى جعل الهداة بهـا دعاة شقاق

وكان فريق من كبار المصريين يتملقون اللورد كرومر ويمتدحون سياسته ويكفرون نعمة مصر وصاحب عرشها ، وينثرون بذور الفرقة بين أبناء البلاد . فكان ذلك مدعاة للنعى من شوقى على أمثال هؤلاء . إنه شاعر يكره النفاق والمنافقين ويحب مصر من صميم قلبه ، ويراها جنة الدنيا لولا من فيها من ذئاب

وكيف ينال عون الله قوم سراتهمو عوامل الانقسام
إذا الاحلام فى قوم تولت أتى الكبراء أفعال الطغام
فيا تلك الليالى لاتعودى ويا زمن النفاق بلا سلام
أحبك مصر من أعماق قلبى وحبك فى صميم القلب نام
لأجلك رحت فى الدنيا شقيا أصد الوجه والدنيا أمامى
وأنظر جنة جمعت ذئابا فيصرفنى الاباء عن الزحام

ويظهر أن النفاق والرياء ، والالتواء ، كانت من الأدواء المستحكمة فى مصر من عهد بعيد ، حتى أن الخديوى اسماعيل حينما عزل كثير من المرجفون فى حقه ؛ وجفاه من كان له صديقا حميما ، وعاداه من كان له وليا كريما ، ولم يقدم له من رجاله الذين أذاقهم طعم الحياة حمدا ولا شكرا ، وإنما أحسنوا الكفران عقدا وحلا كما قال شوقى

أبت الناس فيك للناس إلا أن يحاربوا الزمان وصلا وصدا
فرأيت الحميم أول جاف ووجدت الولى فى البؤس صدا
ورجالا لولاك لم يعرفوا العيـــش أبوا أن يقدموا لك حمدا
مارأوا بعدك الأمور ولكن يحسنون الكفران حلا وعقدا

ولما نفى شوقى إلى الأندلس ،استراح من شماتة الشامتين ، وخيانة الخائنين لقد كان يشهد بعينيه فى عهد الخديو عباس تواضع المتكبرين ، فلم يلبث أن شهد بعد عزله تكبر الوضعاء . ولم يستطع شوقى أن يكتم ألمه المضاعف من النفى ومن هذا الخلق الزرى فقال فى « قناة السويس »

إن للنفى لروعة ، وإن للنأى للوعة ، وقد جرت أحكام القضاء بأن نعبر هذا الماء ، حين الشر مضطرم ، والياس محتدم ، والعدو منتقم ، والخصم محتكم وحين الشامت جذلان مبتسم ، يهزأ بالدمع وإن لم ينسجم

وقال فى أندلسيته الرائعة « يانائح الطلح »

جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا فى النائبات فلم يأخذ بأيدينا
يبدو النهار فيخفيه تجلدنا للشامتين ويأسوه تأسينا
نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ولم يهن بيد التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صيغ ولا خلق إذا تلون كالحرباء شانينا

وقال فى قصيدته « بعد المنفى » مخاطبا بلاد الأندلس

فأنت ارحتنى من كل أنف كأنف الميت فى النزع انتصابا
ومنظر كل خوان يرانى بوجه كالبغى رمى النقابا
وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

على أن نواحى من الضعف الخلقى كان لها أثرها السيء فى المجتمع المصرى فهذا النظام الفاسد فى حياة الأسرة من تعدد الزوجات بدون مبرر ، وما يترتب عليه من نزاع مستمر فى المنزل بين الأبناء والآباء وأزواج الآباء ، وبنى العلات الذين لم تجمعهم رحم ولم يرفرف ملك الحب عليهم ولا على

وتمـــد حلمك للسفيه مداريا حتى يضيق بعرضك السفهاء
فى كل نفس من سطاك مهابة ولكل نفس من نداك رجاء

* * *

— ٣ —

وأما أثر الأخلاق فى قيام الدول وسقوطها ، ورقى الشعوب وانحطاطها ، فأوضح من أن يحتاج إلى دليل .

فالعرب لم يكونوا قادرين على أن يسيطروا فى مدى قرن من الزمان على ما بين الصين والمحيط الأطلسى إلا بقوة دينهم وقوة أخلاقهم . فقد منحهم الله عزم الرسل ، ورحمة الملائكة ، وبأس الأسود ، ونوال الغيوث ، وعدلا ثابت الأساس أينما ذهبوا . فالعزم للسيطرة والفتح ، والرحمة للمودة وتآلف القلوب ، والبأس للبقيا وارهاب العدو المتاخم ، والكرم لتذوق لذة العيش ، والعدل لبقاء كيان المجتمع . وضمان حياة المحكوم فى كنف الحاكم ورعايته . يبين ذلك شوقى فى قصيدته «مرحبا بالهلال» .

الله جل ثناؤه بلســانهم خلق البيان وعلم الأمثالا
وتخير الأخلاق أحسنها لهم ومكارم الأخلاق منه تعالى
كالرسل عزما والملائك رحمة والأسد بأسا ، والغيوث نوالا
عدنوا فكانوا الغيث وقعا كلما ذهبوا يمينا فى الورى وشمالا
والعدل فى الدولات أس ثابت يفنى الزمان وينفد الأجيالا

ولما سقطت الدولة الأموية فى الشرق لم يوهن ذلك عزم عبد الرحمن الداخل ولم يوئسه من بناء ملك جديد فى الغرب ، فاقتحم كل صعب فى سبيله ، وخاض غمرات لا قبل لغيره بها ، فى علو نفس ، وشمم أنف ، وشجاعة معدومة المثال ، وتنقل فى المعالى تنقل الهلال منزلة منزلة ، حتى بنى دولة من خلقه النبيل . وفى ذلك يقول شوقى :

ذاك والله الفتى كل الفتى أى صعب فى المعالى ما سلك
ليس بالسائل إن هم متى لا ولا الناظر ما يوحى الفلك
زائل الملك ذويه فأتى ملك قوم ضيعوه فملك
غمرات عارضت مقتحما عالى النفس أشم المعطس
كل أرض حل فيها أو حمى منزل البدر وغاب البيهس

* * *

أموى للعلا رحلته . . . والمعالى بمطى وطرق
كالهلال انفردت نقلته لا يجاريه ركاب فى الأفق
بنيت من خلق دولته . . . قد يشيد الدول الشم الخلق
وإذا الاخلاق كانت سلما نالت النجم يد الملتمس
فارق فيها ترق أسباب السما وعلى ناصية الشمس اجلس

ولا ريب فى أن الانحلال الخلقى الذى أصاب المسلمين فى أواخر أيامهم بالاندلس وما كانوا عليه من فرقة وشتات ، وخسة وجبن . كان له أثر أى أثر فى ذهاب ريحهم ، وسقوط دولتهم وركوبهم بالبحار نعشا كان تحت آبائهم عرشا يملأ الدنيا بهاء وروعة . وهذا شوقى يرسم لنا الصورة الحزينة فى قوله :

خرج القوم فى كتائب صم عن حفاظ كموكب الدفن خرس
ركبوا بالبحار نعشا وكانت تحت آبائهم هى العرش أمس
رب بان لهادم ، وجموع لمشت ، ومحسن لمخس . .
إمرة الناس همة لا تأتى لجبان ولا تسنى لجبس .
وإذا ما أصاب بنيان قوم وهى خلق ، فانه وهى أس

والحرب دائما تنتهى بهزيمة فريق وانتصار فريق . وللأخلاق دخل فى الهزيمة والانتصار على السواء . وقد حاربت اليونان تركيا فى حياة شوقى مرتين فهزمت فى كلتيهما وانتصر الترك عليها . فقال فى الحرب الاولى :

ظهرت أمير المؤمنين على العدا ظهورا يسود الحاسدين ويتعب
همو ملأوا الدنيا جهاما وراءه جهام من الاعوان أهذى وأكذب
ولم يتكلف قومك الاسد أهبة ولكن خلقا فى السباع التأهب
كذا الناس بالاخلاق يبقى صلاحهم ويذهب عنهم أمرهم حين تذهب

وقال فى الثانية يذكر قوة سلاح اليونان وكثرة عدوهم ، وصبر الترك وشدة بلائهم ، واستسهالهم كل صعب ، وعدم استعصاء المحال عليهم ، وعمل الاخلاق فى نصرهم ، وسحر القائد فى الجند ، وتطهيره الامة من ذل الاستكانة وفشل التفكك . حتى توحدت الجهود وخرج الشعب بعد الحرب أقوى مما كان قبلها .

وما السلاح لقوم كل عدتهم حتى يكونوا من الاخلاق فى أهب
لو كان فى الناب دون الخلق منبهة تساوت الاسد والذؤبان فى الرتب
لم يغن عن قادة اليونان ما حشدوا من السلاح وما ساقوا من العصب
للترك ساعات صبر يوم نكبتهم كتبن فى صحف الاخلاق بالذهب .
لا الصعب عندهمو بالصعب مركبه ولا المحال بمستعص على الطلب
ولا المصائب إذ يرمى الرجال بها بقاتلات إذا الاخلاق لم تصب
من فل جيش ومن انقاض مملكة ومن بقية قوم جئت بالعجب
أخرجت للناس من ذل ومن فشل شعبا وراء العوالى غير منشعب

* * *

ومصر أم الحضارة فى العالم . لم يستطع بنوها الفزعة أن يقيموا الاعاجيب ، ويبنوا الآثار الخالدة الا بما أوتوا من عقول جبارة ، واخلاق متينة ، الاتقان البالغ ، والهمة العالية أجلى مظاهرها . يصور ذلك شوقى فى قصيدته « توت عنخ آمون » .

غدوا يبنون ما يبقى ، وراحوا وراء الآبدات مخلدينا

إذا عمدوا لمأثرة أعدوا . لها الاتقان والخلق المتينا
وليس الخلد مرتبة تلقى وتؤخذ من شفاه الجاهلينا
ولكن منتهى همم كبار . . إذا ذهبت مصادرها بقينا
وسر العبقرية حين تسرى فتنتظم الصنائع والفنونا

ويشير إلى ذلك فى قصيدته « على سفح الاهرام »

لك كالمعابد روعة قدسية وعليك روحانية العباد
أسست من أحلامهم بقواعد ورفعت من أخلاقهم بعماد

والحضارة اليونانية لم تبلغ حظها من الروعة والكمال إلا بالاخلاق والعلم والفن. ولكن الاخلاق كانت صاحبة الاثر البارز فى اليونان بما كان يضرب أساتذتها من المثل الرفيعة . وهذا شوقى فى قصيدته « أرسطاليس وترجمانه » يشير إلى هذا بقوله :

مشاء هذا العصر قف حدث عن العصر القديم
مثل لنا اليونان جيش العلم والخلق القويم
أخلاقها نور السبيل وعلمها نور الاديم
وشبابها يتعلمو ن على الفراقد والنجوم
لمسوا الحقيقة فى الفنو ن وأدركوها فى العلوم
حلت مكانا عندهم . . فوق المعلم والزعيم

وبريطانيا لم تبن ملكها المتطاول فى الشرق والغرب إلا بأخلاق بنيها وما بذلوا من جهد وصبر فى السلم والحروب . مع بعد نظر وكياسة سياسة .

ملك يطاول ملك الشمس عزته فى الغرب باذخة فى الشرق قعساء
تأوى الحقيقة منه والحقوق إلى ركن بناه من الأخلاق بناء
وحاطه بالقنا فتيان مملكة فى السلم زهر ربى فى الروع أرزاء

ذلك أثر الأخلاق عند شوقى فى بناء الأمم . فلاعجب إذن إذا وجدناه

« يدير الأخلاق على معانى البناء وأحواله والبناء وأجزائه » كما يقول الأستاذ الكبير على النجدى ناصف . فإن أخلاق المصريين فى عهده كانت فى حاجة ماسة إلى مثل هذه الروح القوية . ولعل ذلك هو ما حدا بشاعرنا العظيم أن يوجه إلى الشباب المصرى كل عنايته وغوالى نصائحه فى مناسبات لاحصر لها : وذلك شأن من يريد البناء من جديد :

قل للشباب اليوم بورك غرسكم دنت القطوف وذللت تذليلا

***

قل للشباب بمصر عصركم بطل بكل غاية إقدام له ولع

***

قل للشباب زمانكم متحرك هل تأخذون القسط من دورانه

***

يا شباب الديار مصر إليكم ولواء العرين للأشبال

***

ياشباب الفدا وابناى الفدا لكمو أكرم وأعزز بالفداء
عصركم حر ومستقبلكم فى يمين الله خير الأمناء

***

شباب قنع لاخير فيهم وبورك فى الشباب الطامحينا

ولقد ذهب الأستاذ فى عرض النصوص الأخلاقية لشوقى مذهبا عجيبا وبنى على هذه النصوص أحكاما غريبة . فالنصوص لها ملحقات تشرحها وتعزها وأعتقد أن فيما أسلفنا كل الكفاية . غير أننا فى حل من توضيح بعض النصوص التى أوردها . فالأبيات التى قالها شوقى فى مملكة النحل . لا يتم معناها إلا بما بعدها .

أليس فى مملكة النحل لقوم تبصره

ملك بناه أهله بهمة ومجـــدرة
لو التمست فيه بطـــال اليدين لم تره
تقتل أو تنفى الكســـالى فيه غير منذرة

هذه هى أخلاق النحل التى بنت ملكها بها . الهمة والدقة والعمل وقوة القيادة . وبيت شوقى فى نهج البردة :

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم

لا يتم معناه الفنى إلا بالبيتين التاليين :

والنفس من خيرها فى خير عافية والنفس من شرها فى مرتع وخم
تطغى إذا مكنت من لذة وهوى طغى الجياد إذا عضت على الشكم

أفلا يرى حضرة الأستاذ أن شوقى فى هذه الأبيات الثلاثة قد أصبح كغيره من الشعراء فيلسوفا فى شعره أو شاعرا فى فلسفته . وأنه بتكامل النص قد خرج من زمرة صالح بن عبد القدوس وعبد الله فكرى ؟

وإذا أردنا أن تتدبر طريقة شوقى فى التناول والتصنيع والعرض ونرى إلى أى غاية بلغ ، فما علينا إلا أن نعرض هذه الأبيات فى مصرع كتشنر

رضع الأخلاق من ألبانها إن للأخلاق وقعا فى الصغر
ورآها صورة فى أمه ومن القدوة ما توحى الصور
أبعد الساعون يبغون المدى والمدى فى المجد دان لنفر
كجياد السبق لن تغنيها أدوات السبق ما تغنى الفطر

ونعود إلى بيتين أوردناهما فى قصيدته عن ابن زيدون

مارأى الناس شاعرا فاضل الخلق طيبا
درس للناشقين فى زنبق الشعر عقربا

ونعود إلى أبياته فى عبد الرحمن الداخل :

أموى للعلا رحلته والمعالى بمطى وطرق

كالهلال انفردت نقلته لايجاريه ركاب فى الأفق
بنيت من خلق دولته قد يشيد الدول الشم الخلق
وإذا الأخلاق كانت سلما نالت النجم يد الملتمس
فارق فيها ترق أسباب السما وعلى ناصية الشمس اجلس

***

واعتقد أن حضرة الأستاذ يوافق على أن هذه الصور لاتقل روعة عن الصور التى أوردها فى الموازنة بين شوقى وغيره من الشعراء السابقين .

وقد كتب الأستاذ الجليل صفحة كاملة فى شرح أبيات لابن الرومى وبيان عبقريته وبراعته وافتنانه . وتلاحق صوره وصدق أمثلته ورائع تخريجه وأنا رجل لا أملك من أناقة البيان مايملك الأستاذ غير أنى أرى أن أبيات ابن الرومى ضحلة لاعمق فيها ولا فلسفة ولا شىء أكثر من المتعارف عند جميع الناس وما جاءت به الشرائع من مجازاة الحسنة بأمثالها والسيئة بمثلها . اما الحقد بمعناه الصحيح وهو الضغينة القلبية الغنيفة التى منشؤها ثأر أو ثلم عرض ، أو انتقاص قدر ، أو خروج على سلطان ، أوحسد على نعمة . فإنها لاتعتبر مدحا بحال من الأحوال كما يدعى حلو الحق مرا ، فإن القلوب فى الحالات الأولى لاتشفى بحمل الضغينة ولا بالاساءة البيانية ، وإنما تستريح عندما تدرك بغيتها من النقمة ، والحسد لادواعى له مطلقا . ولا علاج . وإذا كان معن بن أوس قد حاول بكل ما يستطيع الحليم من جهد أن يستل الضغن الذى يضيق به الجرم من قلب قريبة ، وداواه حتى ارفأن نفاره ، فإنه بقصيدته الخالدة .

وذى رحم قلدت أظفاره ضغنه يحلى عنه وهو ليس له حلم

أجل مذهبا وأكرم نفسا وأرق بيانا وألطف من حاول علاج الحقد

من الناحية النفسية . وأنا أومن بعبقرية ابن الرومى إلا فى هذه الأبيات فانى لا أعترف له فيها بشىء من الإبداع .

— ٥ —

ونعود بعد ذلك إلى النقد والتحليل . فقد أخذ الاستاذ الكبير على بيت شوقى

وإنما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

بعض المآخذ : منها أنه يجعل الامة شيئا واحدا لامزيد عليه فى مقوماتها فالامة فى رأيه أخلاقها . وما هى بها فقط فى الواقع ولكن معها مقومات أخر لابد منها كالعلم والصحة والمال :

وقد رد الدكتور هيكل باشا فى مقدمة الشوقيات على هذه النقطة بقوله :

« فشوقى يرى أن الأمم لاتقوم على دعامة غير دعامة الاخلاق ؛ وهو يرى ذلك برغم ماقد يبدو فى بعض الامم القوية من تدهور فى الاخلاق . فالعلم عنده حسن وله فائدته ، والغنى حسن كذلك ، والغنى حسن كذلك ، وسائر أدوات الحضارة تصلح الامم . ولكنها جميعا لافائدة من رقيها وغزارتها اذا انحطت أخلاق الامة . فأما إن قويت هذه الاخلاق فقليل من ذلك كله كاف ليرتفع بالامة الى ذروة المجد والسؤدد

وليس معنى هذا أن شوقى يحقر من شأن ماسوى الاخلاق فله عن العلم والفن والعمل والترحال وغيرها آيات بينات . لكنما معناه أن الاخلاق عنده فى المحل الاول . وهو لايمل من أن يكرر الدعوة الى الخلق الصالح على أنه قوام حياة الامم فى كل قصيدة يقولها عن مصر أو عن غير مصر »

واذا كان كلام الدكتور هيكل باشا فى حاجة الى توضيح من شعر شوقى فما علينا إلا أن لورد بعض المثل من قصيدته « تكريم »

بالقطن لم يرفع قواعد ملكه فرعون والهرمان من بنيانه
لكن بأول زارع نقض الثرى بذكائه وأثاره ببنانه
وبكل محسن صنعه فى دهره تتعجب الاجيال من اتقانه
وبهمة فى كل نفس حلقت فى الجو وارتفعت على كيوانه
ملك من الأخلاق كان بناؤه من نحت أو لكم ومن صوانه
فاتوا الهياكل ان بنيتم واقبسوا من عرشه فيها ومن تيجانه

ومن قصيدته « البرلمان »

دون الجلاء ودون بانع ورده خطوات شعب فى القتاد تسار
وبناء أخلاق عليه من النهى سور ومن علم الزمان إطار
وحضارة من منطق الوادى لها أصل ، ومن أدب البلاد نجار

وإذن فشوقى لم يهمل ماسوى الأخلاق من مقومات الأمم فى شعره .

وأنا أورد بعض أبيات لشوقى عن الفن تعتبر أروع ماقيل فى تمجيده

لولا ابتسام الفن فيما حوله ظل الوجود جهامة وجفاء
جرد الفن الحياة وماحوت تجد الحياة من الجمال خلاء
بالفن عالجت الحياة طبيعة قد عالجت بالواحة الصحراء
تأوى اليها الروح من رمضائها فتصيب ظلا أو تصادف ماء
نبض الحضارة فى الممالك كلها يجرى السلامة أو يدق الداء
إن صح فهى على الزمان صحيحة أوزاف كانت ظاهرا وطلاء

ويقول حضرة الاستاذ « وكان خيرا من هذا البيت وأضمن لسداد معناه أن يودعه الشاعر مقومات الامة كلها ويبين مبلغ الاحتياج إليها ثم يختص الاخلاق إذا شـــاء بما هى أهل له من إيثار . أما أن يقصر الحديث على الاخلاق ويؤتيها وحدها الفضل كله فنقص وقصور . هيهات معهما أن يتحقق المراد بالبيت على وجهه »

والبيت كما هو أمامنا مكون من عشر كلمات ، ولو كان شوقى موظفا فى قسم المعاهدات بوزارة الخارجية البريطانية وأوتى أعظم نصيب من اللباقة السياسية ما استطاع أن يضع مقدمات الامة كلها ويبين مبلغ الاحتياج إليها ثم يختص الاخلاق بما هى أهل له من إيثار فى عشرة كلمات .

والمأخذ الثانى مردود عليه من حضرة الأستاذ ونحن نوافقه على الرد لا على المأخذ . وليس بعد كلام الله ولا كلام رسوله اصطلاح .

والمأخذ الثالث كون شوقى يجعل بقاء الأمة رهينا ببقاء أخلاقها تبقى مابقيت ، وتذهب حين تذهب ، وتلك قضية غير مسلمة ، لأن فضائل أى أمة لا تعنى حتما الفضائل الانسانية ، فقد يكون للأمة أخلاق تدين بها وتنكر التخلى عنها ، وهى فى نفسها رذيلة ممقوتة ، فعرب الجاهلية مثلا كانت لهم أخلاق ذميمة أنكرها الاسلام فما زال بها حتى أبطلها وأحل ضدها محلها . ومع ذلك لم نر الامة ولا قسما منها يذهب بل رأيناها تقبل وتتجمع وتصح وتقوى ثم تنساح فى الارض فتملؤها حضارة ونورا وعدلا بعد ما ملئت همجية وظلاما وظلما » .

وأعتقد كما يعتقد حضرة الاستاذ الجليل أن الاسلام خلق العرب من جديد وأن عرب الجاهلية بأخلاق الجاهلية أمة وعرب الاسلام بأخلاق الاسلام أمة . والاخيرة هى التى أقبلت وتجمعت وصحت وقويت ثم انساحت فى الارض فملأتها حضارة ونورا وعدلا .

— ٦ —

أما بعد . فقد أدى شوقى رسالته الأخلاقية على أتم ما يؤدى شاعر عظيم رسالة عظيمة . وما علينا إلا أن نسير على هذه المثل الرفيعة ونروض أنفسنا على التحلى بمكارم الاخلاق التى أوصى بها الدين الحنيف .

ونختم هذا البحث بالكلمة القيمة التى ختم بها أرسطو كتابه فى علم الأخلاق . مع ضمان الامل فى العمل على تحقيق هذه المبادىء السامية : فى الشئون العملية ليس الغرض الحقيق هو العلم نظريا بالقواعد . بل هو تطبيقها ففيما يتعلق بالفضيلة لا يكفى أن يعلم ماهى . بل يلزم زيادة على ذلك رياضة النفس على حيازتها واستعمالها . لوكانت الخطب والكتب قادرة وحدها على أن تجعلنا أخياراً ، لاستحقت أن يطلبها كل الناس ، وأن تشترى بأغلى الاثمان . ولكن لسوء الحظ كل ما تستطيع المبادىء فى هذا الصدد هو أن تشد عزم بعض فتيان كرام على الثبات فى الخير ، وتجعل القلب الشريف بالفطرة صديقا للفضيلة ، وفيا بعهدها :

ومنى لحضرة الأستاذ الجليل والاديب الكبير على النجدى ناصف تحية ملؤها الاعجاب والتقدير .

وسلام على شوقى فى الخالدين ؟

عبد الوهاب عنانى الخطيب